﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس: 109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا يَضُرُّ العبدَ من ضلَّ؛ إنْ هو اهتدى

لمّا وعظَهمُ اللّه في أنفسِهم بالاهتداء بالحقِّ الذي جاءهم وعدم الضلال عنه؛ خاطَبَ رسولَه ﷺ بما يجبُ عليه في خاصَّةِ نفْسِه، فأمره باتِّباع الحقِّ الذي أوحي إليه، اهتدى النّاس أم ضلُّوا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡكُمَ﴾: مِنَ الحُكْم، وأصله: المنعُ للإصلاحِ ونفيِ الظُّلم، ومنه الحِكمة؛ لأنَّها تمنع من الجهلِ والسَّفَه، والمراد هنا: يَفصِلُ بينك ومَنِ اهتدى معك وبين مَنْ أعرضَ وضلَّ، بِغلَبَتِك عليهم وتأييده لك على من يُعاديك[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القيامُ بالتكليفات الشرعية كلِّها، والصبرُ على مشاقِّها وصِعابها

اتَّبِع - أيُّها الرسول الكريم - ما يأتيك من الوحيِ بالامتثال والتَّبليغ، ولا تنشغل بمن ضلَّ، وحاد، ولكنِ اصبرْ على طاعة اللّه تعالى، وعن معصيته، وعلى أذى المُكذِّبين لك، وعلى أذى مَن آذاك في تبليغ رسالة ربِّك، حتّى يأذَنَ اللّه لك بالظُّهور عليهم، ويحكمَ بدينونَتِهم لك، واعلم أنَّ اللّه هو خير الحاكمين، فأيقِنْ، ولا تستعجِل، واسْكُنْ، ولا تجزع؛ فإن حُكمَه تعالى مشتملٌ على العدلِ التامِّ[3].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى اتِّباع الوحيِ الإلهيِّ الذي تضمَّنه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/220.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم).

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/126، والسيوطي، تفسير الجلالين: ص: 283، ومجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.

القرآنُ العزيز والسنة الصحيحة، وإلى فضيلة الصبرِ وانتظارِ الفَرَج من الله تعالى، وأنَّ عاقبتَه حميدة، وأنَّه لا يأتي إلّا بالخير؛ فقد امتثلَ رسولُ الله ﷺ أمرَ ربِّه، وثبَت على الصراطِ المستقيم، حتى أظهرَ الله دينَه على سائر الأديان، ونصرَه على أعدائه بالسَّيف والسِّنان، بعد ما نصره عليهم، بالحجَّة والبرهان، فلله الحمدُ، والثناءُ الحسن[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع جملة ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

جملة: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ إمّا معطوفةٌ على قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ﴾، فتكون داخِلةً في حيِّز مَقولِ القولِ الذي أُمِر ببلاغِه، والأحسن أنْ تكون مستأنَفةً ممّا قبلها لاستبعاد عطفِ الإنشاء: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على الخبر: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾، فهذه الجملةُ، وإنِ افتُتحتْ بالإنشاء اللفظيِّ، وهو فعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ وجملة النِّداء، إلّا أنَّ معناها خبريٌّ لا إنشائي؛ إذِ المقصود من فعل القول وأسلوب النداء التوسُّلُ إلى الخبر، وهو قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾، فيكون قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ مؤسِّسًا لمعنًى جديد، وهو تكليفُ النبيِّ ﷺ باتِّباع الوحي في جميع الأحوال سواء اهتَدَوا أم ضَلُّوا، وبعد مُفاصَلَتِه عنهم بصرْفِه عن أنْ يكون وكيلًا عنهم بحال، فكأنَّه يقول له: لستَ وكيلًا عليهم، فكُنْ وكيلًا عن نفْسِك باتِّباعِك وعمَلِك، ولا تكترثْ بما عَمِلُوا من الهدى أو الضلال، فالكلامُ تأسيسٌ لحالٍ ثالثةٍ هي حال النبيِّ ﷺ بعد افتراق الناسِ لفريقين بعد بلاغِه لهم[2].

الأنبياءُ مُحاسَبون يومَ يَسألُ اللهُ الصّادقين عن صِدقِهم

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/518.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/220، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310، ودرويش، إعراب القرآن: 4/308.

دلالة الأمر في ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

لا رُتْبَةَ للعبادِ عند الله إلّا بالطّاعةِ والتقوى

الأمر في قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ دلَّ على أنَّ النبيَّ ﷺ مُكلَّفٌ بنفْسِ ما يُكلِّفُ النّاسَ به، من اتِّباع الحقِّ والهدى، فصيغة الأمر أفادتِ التنصيصَ على ذلك، لاستفادتِه بالنَّصِّ المنطوق، لا بمجرَّدِ المُقتضى المفهوم، فالأمر فيها على ظاهره في إفادة الوجوب، ويمكن حمله على المجاز بإفادته معنى الزِّيادة أو الثَّبات؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ متَّبعٌ لربِّه مطيعٌ له في كلِّ ما أمره به.

نكتةُ الاستعارة في ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

الطاعةُ والاتِّباعُ فيهما امتثالٌ واحتذاء

شبَّه الطّاعة بالاتِّباع على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة بنقل اللفظ من معنى إلى معنى آخر لوجود شبه بينهما؛ لأنَّ كلًّا منهما فيه امتثال واحتذاء.

معنى ﴿مَا﴾:

كلَّما تجدَّدَ شيءٌ من الوحي؛ أحدَثَ المؤمنون له شيئًا من الاتِّباع

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ موصولة، أي: اتَّبِع الذي يُوحَى، والتعبير بالموصول المُشترك ﴿مَا﴾؛ للدَّلالةِ على جميع ما يُؤخَذُ بالوحي، ويدخلُ فيه القرآنُ دخولًا أوَّليًّا، ثمَّ يَندرجُ تحتَه سائرُ ما يُوحى ممّا ليس قُرآنًا، ويَبْعُدُ - هنا - إجراءُ ﴿مَا﴾ على معنى المصدريَّة، لِعُسْرِ تقديرِ المصدرِ المؤوَّل مع الجار والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾[1].

فائدةُ بناء الفعل ﴿يُوحَىٰٓ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله:

الوحيُ من خصائص الألوهيَّة فلا يدَّعيه أحدٌ سوى الله

جاء فِعلُ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ على بناء ما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لتقصيرِ الكلام على السّامِع، وتوفيرِ عنايته للغرضِ المقصودِ وحده، وهو توجيهه لمادَّة الوحي محلِّ الاتِّباع المأمور به، وليس الغرضُ الإنباءَ عن الفاعلِ، لوضوحِه وعدم التباسِه، فلا يتعلَّق الغرض بالكشْفِ عنه.

(1) صافي، الجدول: 11/210.

معنى الواو في: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملة: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾؛ إيذانًا بأنَّ اتِّباع الوحي يستلزِم إدامَتَه والاستمرار عليه بالصَّبر[1].

لا يكونُ اتِّباعٌ بغير صَبْرٍ، ولا صبْرٌ بغير اتِّباع

دلالة الأمر في ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾:

التعقيبُ بفعل الأمر ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ بعد الأمر بالاتِّباع في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ للإشارة إلى أمرين:

لا يَتحقَّق بالصبر إلّا أولو العزم من البشرِ

الأوَّل: أنَّ الاتِّباع المذكور لا يتِمُّ إلّا بالصبر عليه، وإلّا انقطعَ بالملالِ وخِفَّةِ العزم، فَلَا بدَّ من إدامتِه بعزيمةِ الصبر.

الثاني: الأمر بالصَّبر بعد الاتِّباع إيماءٌ إلى أنَّه قد يحصل مكروه وأذيَّةٌ له من المُخالفين والخصوم بسببِ اتِّباعه، فإنْ كان: فليستَوْثِقْ بالصَّبر، ففي الأمْر بالصَّبرِ نهيٌ عن ضِدِّه من الجزَعِ وانْفِساخِ العزم وضعفِ الحيلة[2]، فالأمر على ظاهره في إفادة الوجوب، وقد يُحمل على المجاز بإرادة معنى الزِّيادة في الصَّبر أو الثَّبات عليه.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ حرف غايةٍ أو تعليل، ويُراد بها - هنا - في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ الغاية، فما بعدها جُعِلَ غايةً لما قبلها، فغيّا الصبرَ بحكم الله، وفي النَّصِّ على تلك الغاية إيذانٌ بالنَّصر بعد الصَّبر، وبالجَبْرِ والعِوَض بعد العناء والتَّعب[3].

غـايـةُ الـصَّـبرِ أنْ يحكم اللهُ بالفرَج

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يَحۡكُمَ﴾:

مجيء الفعل ﴿يَحۡكُمَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على استقباله واستمراره، وهو مؤذِنٌ بِطولِ الاستمتاعِ به في الدُّنيا؛ فإنَّ حُكْمَ

لا يتعلَّق المؤمن إلّا بحكمِ ربِّه

(1) صافي، الجدول: 11/211.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/311.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/197، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/143.

اللّه يتضمَّنُ التأييد والإكرام للمؤمنين، وهذا من النَّعيم العاجل والمُتعةِ الحاضرة.

سرُّ العدول من لفظ الرُّبوبيَّة إلى لفظ الألوهيَّة:

أحكامُ اللهِ كاملةٌ لا شطَطَ فيها ولا جَوْر

أسند الحكم إلى اسم الذّات ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه حُكْمٌ كاملٌ مِنَ الذّاتِ الكاملةِ العليَّة في صفاتِها من العِلمِ والقدرةِ والحِكْمةِ والقهْر، وهي موجباتُ الحُكْم الكامل والقضاء العادل، فأتى بالاسم الجليل دون غيره؛ لتضمُّنه جميع الصِّفات التي تستوجِبُ الحُكْمَ، ولو عبَّر بغير اسم الذّات؛ لأطْنَبَ السّياقُ في تعديدِ أكثرَ من صفةٍ من صفات اللّه لاقتضائِها جميعًا حُكْمَ الحكيم، ولم يُعبَّر باسم الرُّبوبيَّة، فلم يَقُل: (حتى يحكمَ ربُّك)؛ لِما في الرُّبوبيَّة من معاني الإحسان والرِّفق، خلافًا لِمقام الحُكْم الذي هو مقامُ شِدَّةٍ وقوَّةٍ بتأييدِ المُحِقِّ وغلبةِ المُبطِل، ولِكون الحكم مَبنيًّا على الاستحقاق والعدل، دون المُحاباةِ والتفضيل المحض، وإلّا كان فيه شُبْهةُ إجحافٍ بالخَصْمِ المُخالِف.

نُكتةُ حذف مُتعلَّق الحُكْم:

الصَّبرُ لله مُتَعبَّدٌ به في كلِّ حال

لم يقل في السّياق الكريم: (واصبر على كذا حتّى يحكم اللّه في كذا)، فلم يُعلِّق (الصَّبر) و(الحُكْمَ) على زمانٍ أو مكانٍ، ولم يُحدِّدهما بمجالٍ، لغرضين مُهِمَّين:

الأوَّل: لِلإيذانِ بأنَّ الصَّبرَ تكليفٌ مُصاحِبٌ لِلْأحْوَالِ كَافَّةً، مقرونٌ بجميع أسبابه ومُقتضياتِه العامَّة والخاصَّة والحقيرةِ والعظيمة، فهو تكليفٌ لا تتِمُّ سائرُ الأحوال والأعمال إلّا به، ولذا لم يحدِّدْه بمجال، أو يُعلِّقْه بظرفٍ أو حال.

الثاني: لم يقل: (حتّى يحكمَ اللّه في كذا)؛ لِثقةِ المؤمنين بكون اللّه حاكمًا، فيكفيهم أنَّ اللّه هو من يحكم، فلا يحتاجون إلى تَحْديدِ مجالِ الحكم أو موقعه، فحيثما كان حكمُ اللّه كان الخيرُ والإصلاح،

وأيضًا: لوضوح مُتعلَّقِ الحكم حذَفَهُ إيجازًا، فإنَّ مُتعلَّق الحكم إمّا بَيْنِيٌّ بين طرفين، أو فرديٌّ أحاديٌّ، فتقديره على الأوَّل: حتى يحكم الله بينك وبينهم، وتقديره على الثاني: حتى يحكمَ الله في أمرك، وكلا التقديرين بمعنًى؛ لأنَّ معنى الأخير: حتى يحكم الله في أمرك بمجازاتك على عملِك، وفي أمرك مع المخالفين.

موقعُ جملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تذييلٌ قُصِدَ به الثناءُ على الله، فهو منْ تَتِمَّةِ الغايةِ المذكورة في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾، وواوُ الوصلِ استئنافيَّة لاعتبار الابتداء في: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فالجملة من مبتدأ وخبر، فروعي مع الاستقلال معنى الاستئناف، أو أنَّ الواو حاليَّة، لاعتبار جملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ حال من اسم الجلالة في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾، وعلى الاعتبارين، فجملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ مُقرِّرة ومؤكِّدة لمضمون الجملة قبلها، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾؛ لدلالة اسم الذّات على معنى ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، فكأنَّه قيل: واصبِر حتى يحكمَ خيرُ الحاكمين[1].

ما دامَ اللهُ هو خير الحاكمين، فلا يستوحِشُ المؤمنُ في حالٍ أبدًا

بلاغةُ القصر بتعريف طرفي الإسناد:

قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تعرَّفَ فيه طرَفا الإسناد المبتدأ والخبر، فأفاد قصرَ حكمِ المُسنَدِ على المُسنَد إليه، فلا يَتّصِفُ بخير الحاكمين إلّا هو سبحانه، فهو من قَصْر الصِّفة على الموصوف، وهو قصرٌ حقيقيٌّ يُؤذِنُ بالتحريضِ على إتمام ما عُلِّقَ به من تكليفٍ بالصبرِ على الاتِّباع، وعدم الجزع من تَحَرُّشِ المُخالفين؛ لأنَّ مآلَه إلى حكمِ خير الحاكمين وخير الحاسبين، فالقصر مُضَمَّنٌ معنى البُشرى والجزاء.

مـآل الأمـور كلّها إلى حكمِ خير الحاكمين والحاسبين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310، وصافي، الجدول: 11/211، والخطيب، التّفصيل في إعراب آيات التنزيل: 6/262.

وجهُ الكناية في: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، و﴿خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

حياةُ الإنسانِ أوَّلُها صبرٌ، وآخِرها حُكمُ خيرِ الحاكمين

قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ كنايةٌ عن تعرُّضه لأسباب الصَّبر من المُضايقةِ والعناءِ والأذى، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ كنايةٌ عن مُكافأتِه على ذلك ومعاقبةِ الظّالمين له بالخصومةِ والتكذيب والأذى، وقرينةُ الكناية: تعليقُ الصَّبر بغايةِ حكم الله، والأمْرِ به بعد الأمر باتِّباع الوحي، فتحييزُ الصبر بين الاتِّباع والحكم مؤذِنٌ بأنَّه صبرٌ خاصٌّ دالٌّ على لازمِ معناه المذكور[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة التَّفضيل:

جعلُ المفضولِ بإزاءِ الأفضلِ يُبْرِزُ كمالَ الأفضل

مجيء التركيب على صيغة التفضيل في قوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ لإثبات الخيريَّة المُطلَقَة في حكمِه ﷻ على حكْم من سواه، وإنْ وُجِدَ في حكمِ من سواه خيرٌ وعدل، إلا أنَّ حكْمَه لا يحتمِل الخطأ والسَّهو أو نقصَ العِلم، وحُكْمَ من سواه تعتريه احتمالاتُ النَّقص، ولذا كان هو سبحانه خيرَ الحاكمين؛ لاستحالة الخطأ أو الخفاء في شأنِ حُكْمِه[2].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

الصِّفات على قَدْرِ الذَّوات

(الـ) التعريف في قوله: ﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ هي (الـ) الموصولة الدّاخِلة على أسماء الفاعلين، ولها دلالةٌ على إفادة الكمال، وهو استغراق خصائص أفراد الجنس، أي: هو خيرُ الحاكمين ذَوي الأهليَّة الذين استوفَوا صِفاتِ استئهالِ الحُكْم، واستكملوا خصائصه وحقائقَه، ودلالتها على الموصوليَّة حقيقة، ودلالتها على الكمال مجازٌ، ولا تَعارض بين الدلالتين؛ لأنَّ معنى الموصوليَّة مطَّردٌ في (الـ) ثابتٌ بنفْسِه من غير قرينة، والذي أعان على دلالة الكمال ليس (الـ) وحدها، بل قرائنُ السياق، وهي في هذا التركيب: مجيء الكلام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/126، والآلوسي، روح المعاني: 6/188، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310.

بصيغة التفضيل التي تؤذِنُ بثبوتِ أفضليَّةٍ مرجوحةٍ للمفضول، ولِكوْنِ التفضيلِ في جانبِ الله سبحانه؛ تأكَّدَ معنى الكمالِ في ﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ إذ لا يُفاضَلُ بَيْنَ الله تَعَالَى وَالحاكمين الجائرين أو النّاقصين، وكذا تعريف اللفظ بـ (الـ) الجنسيَّة الدّالة على استغراق صفاتِ الأفراد وعدَدِهم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يحكم ويقضي:

الحُكْمُ هو: ضَبْطٌ يَمْنع التَّسَيُّب، ويمكِّن من جَعْل الشيء – أو جريانه – على ما يَنبغي ويُراد، والقضاء: هو إجراءُ الحكْم وإنفاذُه، ويُطلَق كلٌّ منهما على الآخَر، فالقضاءُ يُستعمَل بمعنى الحكم؛ لأنَّ "القاضيَ يَضْبِط أمرَ كلٍّ من الفريقين، ويفصل، مانِعًا أن يَدخل أيٌّ منهما على الآخر في حقِّه"، ويستعمل الحكم بمعنى القضاء؛ لِأنَّ القاضيَ "يُحكِمُ الأحكامَ، ويُنْفِذها"، فكلُّ قضاءٍ حُكم، وليس كلُّ حُكْمٍ قضاءً؛ لأنَّ القضاء هو نهايةُ الشيء وإتمامه والفراغ منه، ولذا فالقضاء ليس مجرَّد إصدارِ الحكم فقط، بل إجراؤه وإنفاذُه، وأمّا الحكمُ؛ فهو القضاء بالشيء أن يكون كذا، أو ليس كذا، سواء أَلْزَمتَ ذلك غيرَك، أو لم تُلْزِمْه، فالحكمُ أعمُّ، والقضاءُ أخصُّ[2].

الحكمُ غيرُ إلزاميٍّ، والقضاء إلزاميٌّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم، قضى).

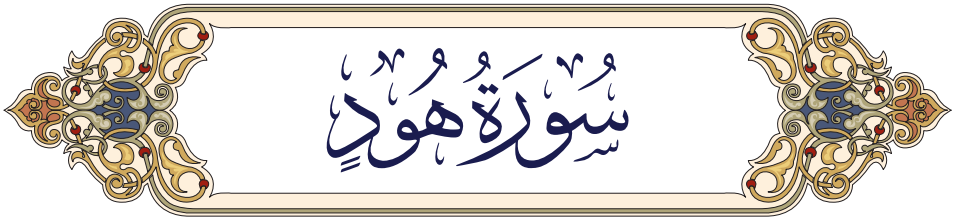
سُورَةُ هُودٍ

سُورَةُ هُودٍ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

الأصح أنَّ سورة هود كلَّها مكيَّة

سورةُ هودٍ مكيَّةٌ كلُّها عند الجمهور، بل ورد نقلُ الإجماعِ على مكيَّتِها، ونقْلُ الإجماعِ وإنْ كان فيه نظَرٌ، إلّا أنَّه يُرجِّح كونَ جميعها مكّيَّة، وقيل: هي مكيَّة إلّا ثلاثَ آياتٍ منها، وهي: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ [هود: 12]، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: 114][1]، "والأصحُّ أنَّها كلَّها مكيَّةٌ، وأنَّ ما روي من أسباب النزول في بعضِ آيِها تَوَهُّمٌ "[2].

والمؤكَّد هنا أنَّها السُّورة الحادية عشرة في ترتيب المصحف الشريف، تقع بين سورتَي يونس ويوسف، حسب التَّرتيب التَّوقيفيِّ لسُوَر القرآن الكريم، وهو التَّرتيب الَّذي تعاضدت عليه آراء جهابذة العلماء والمحقِّقين من قدماء ومعاصرين، وذكر بعض المفسِّرين أنَّ ترتيبها النُّزوليَّ الثانية والخمسون، بعد سورةِ يونس، ونزلَ بعدها سورة يوسف[3].

وآياتُها مِائَةٌ وإحدى وعشرون آيةً في المدنيِّ الأخير والمكيِّ والبصريِّ، واثنتانِ وعشرون آيةً بعد المائةِ في المدنيِّ الأول والشاميِّ، وثلاث وعشرون آيةً بعد المائة في الكوفيِّ.

واختِلافُ العدِّ في سبْعِ آيات، هي: ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود: 54] عدَّها الكوفيُّ، ولم يعدَّها الباقون. ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

(1) ابن الضرّيس، فضائل القرآن، ص: 34، والنحاس، الناسخ والمنسوخ: 2/472، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/246، والبقاعي، مصاعد النظر: 2/170، وعبد الرزاق حسين، المكي والمدني: 2/680.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/312.

(3) السيوطي، تَناسُق الدرر في تَناسُب السور، ص: 95، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/312، ودروزة، التفسير الحديث: 1/15.

[هود: 74] لم يعدَّها البصْريُّ، وعدَّها الباقون، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: 82] عدَّها المدنيُّ الأخير والمكيُّ، ولم يعدَّها الباقون. ﴿مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾ [هود: 82] لم يعدَّها المدنيُّ الأخير والمكيُّ، وعدَّها الباقون. ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ [هود: 86] عدَّها المدنيّان والمكيُّ، ولم يعدَّها الباقون. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨﴾ [هود: 118] لم يعدَّها المدنيّان والمكيُّ، وعدَّها الباقون. ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١﴾ [هود: 121] لم يعدَّها المدنيُّ الأخير والمكيُّ، وعدَّها الباقون[1].

دلالةُ التَّوقيت الزَّمني لنزول السّورة:

المُدَّةُ التي نزلت فيها هذه السّورة هي الظُّروفُ نَفْسُهَا الَّتي نزلت فيها سورتا يونس ويوسف، فترتيبها المصحفيُّ بين هاتيْن السّورتَيْن هو التَّرتيبُ النُّزوليُّ لها ذَاتُهُ، وهي فترة حافلةٌ بأحداث جِسام عاشها المسلمون الأوائل في مكَّة المكرَّمة، حيث نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين بها، وبعد كَبَدٍ وَمعاناةٍ واضطهادٍ، فنزلت عقب حادثة الإسراء والمعراج، وبعد أن تقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ من التَّكذيب والتَّشكيك، ونزلت بعد وفاة عمِّ النبي ﷺ أبي طالب وزوجه خديجة، حيث سُمّي هذا العام بعام الحزن؛ بسبب توقُّف دعوة النَّبيِّ ﷺ فيه، وبسبب ما لقيه من أذًى في داخل مكَّة وفي خارجها من أهل الطّائف، حيث ردُّوه خائبًا بعد أن أدموْه، وغرَّروا به صبيانهم وسفهاءهم، فوجد النَّبيُّ ﷺ في نفسه ما وجد من مَشَقَّةٍ وعناءٍ، حيث فقد في أثناء ذلك كلِّه السَّند العاطفيَّ والعقليَّ بفقْدِ زوجه السيِّدة خديجة، وفقَدَ فيها السَّند الاجتماعيَّ والسّياسيَّ بوفاة عمِّه أبي طالب، فجاءت السّورة تحمل في طيّاتها ما تثبِّت به فؤاده، وترفع من معنويّاته، فجاءت لتعالج مواقف المشركين من قضايا العقيدة الرئيسة كالنُّبوَّة والوحي: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾، وموضوع البعث: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾ [هود: 7]، وحقيقة الحياة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: 15 - 16]، وخلال ذلك كلِّه عرضت بعض جوانب رحلة الأنبياء مع أقوامهم، وبيَّنت طبيعة هذا الإنسان:

(1) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 165.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: 9 - 11]، وخُتمتِ السّورة بالتَّسرية عن النَّبيِّ ﷺ، وبتوصيته بالثَّبات على دعوته: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود: 120 - 123]، إذًا نزلت السّورة في جوٍّ مشحونٍ يمثِّل ذروة الصّراع بين الحقِّ والباطل في مرحلة ساخنة من مراحل الدَّعوة في مكَّة.

أسماء السّورة الكريمة:

سـورةُ (هـود) ﷺ لـم تُسَمَّ باسمٍ غيرِه

ليس لهذه السّورة إلّا اسمٌ واحد، هو (هُود)، وسمّيت به في جميع المصاحف، وكُتُب التَّفسير والسُّنَّة، وهو اسمها الثابتُ رِوايةً وشُهرةً، فعن ابن عباسٍ قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قَدْ شِبْتَ، قالَ: «شَيَّبَتْنِي "هُود" "والواقِعَةُ" "والمُرْسَلاتُ" "وعَمَّ يَتَساءَلُونَ" "وإذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ"»[1].

وسبب تسميتها بهذا الاسم أنَّه كان بسبب تَكْرار اسم (هود) ﷺ فيها خمس مرّاتٍ من أصل سبع مرّاتٍ وردت في القرآن، وهي قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾ [هود: 50]، ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: 53]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: 58]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ [هود: 60]، ﴿مِّثْلَ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ [هود: 89]، ولم يَحصلْ هذا

(1) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب التفسير، باب: (ومن سورة الواقعة)، الحديث رقم: (3308)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة (هود)، الحديث رقم: (3314)، وتفسير سورة (الواقعة)، الحديث رقم: (3777)، وغيرهما.
قال الترمذي: "حسن غريب"، وقال الحاكم: "صحيح على شرط البخاري"، ووافقه الذهبي. ويُنظر: الألباني، السلسلة الصحيحة الحديث رقم: (955).

العدد لنبيٍّ آخر من الأنبياء المذكورين في السّورة، ولأنَّ ما حُكِيَ عنه ﷺ في هذه السّورة أطول ممّا حُكِيَ عنه في غيرها من السّور[1].

والحقُّ أنَّه لا بدَّ من أسباب أخرى أكثر عمقًا وإقناعًا، فمرّات ذكر اسم النَّبيِّ ليست مرتبطة بتسمية السّورة باسمه، فسورة البقرة ذُكر فيها النبيُّ الكريمُ إبراهيم ﷺ خمس عشرة مرَّةً، ولم تُسمَّ باسمه، وذُكر فيها موسى ﷺ إحدى عشرة مرَّةً، ولم تُسمَّ باسمه أيضًا. وأمّا أنَّ السّبب في أنَّ سورة هود أطالت في تفصيل قصَّته، فليس سببًا مقنعًا؛ لأنَّ قصَّة نوح ﷺ في سورة هود كانت الأطول ذكرًا في القرآن الكريم ومع ذلك فلم تُسمَّ السّورة باسمه، إذًا لا بدَّ من البحث عن سببٍ آخر يرتبط بمحور السّورة وشخصيَّتها المميّزة لها، وإذا كانت سورة هودٍ قد أخذت على عاتقها بيانَ أثر الإصلاح القائم على منهجٍ سليمٍ في تحقيق النُّهوض الحضاريِّ، من حيثُ تحقيقُ الشُّهود أو الاضمحلال الحضاري، فإنَّ قوم عاد هم الأنموذج الأمثل في ذلك؛ فقد كانوا أصحاب مدنيَّة قويَّة شهد لها القرآن في أكثر من موضع: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: 15]، وقال عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: 6 - 8].

فلم يشهد القرآن لغيرهم بهذا الامتداد في القوة والتمكين في العُمْران، لكنَّ عناصر ديمومة حضارتهم كانت قاصرةً، فلم يتحقَّق فيها ركن العقيدة الصحيحة، بل كانت مبادؤهم فاسدةً، وأفعالهم قبيحة، صوَّرها القرآن في أكثر من موضع، واصفًا إيّاهم بالاستكبار والتَّكذيب وغيرها من الصِّفات، وقال عنهم في هذه السّورة: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود: 59].

فقوم عاد هم رمزٌ بارزٌ في الاستبداد السّياسيِّ والطُّغيان المادّيِّ، وإنَّ الحديث عن فسادهم هذا هو الأقرب إلَى سُورَةٍ كان من أهمِّ موضوعاتها بيانُ أثر الإصلاح في النُّهوض أو الاضمحلال الحضاريِّ؛ لأنَّ حضارتهم القويَّة قد زالت بسبب فسادهم وعدم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/311.

استجابتهم لداعي الإصلاح بينهم، فضلًا عن التَّشَابُهِ في جَوَانِبَ كَثِيرَةٍ بَيْنَ قصَّة هود عليه السلام مع عادٍ، وَقصَّة نبيِّنا محمَّد ﷺ مع قومه في جوانب كثيرة، فقد قالت عادٌ لنبيِّهم في هذه السّورة: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود: 53]، وفي السّورة السّابقة قالت قريش لنبيّنا: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يونس: 20]، وفي هذه السّورة قال هود عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: 54 - 56]، وفي سورة الأعراف قال نبيُّنا ﷺ لقومه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: 195 - 196]

الموضوعاتُ الرئيسة للسُّورة:

مَـــدارُ الـسّـورةِ عَلَى تقريرِ أصولِ العقيدة وأركان الإيمان

أوَّلًا: تقرير أصل العقيدة وهو عبادة الله وحده لاشريك له: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾.

ثانيًا: الإيذانُ بأنَّ مصدَر الاعتقاد الصحيح هو الوحي، ويتمثَّلُ ذلك في الواسطة البشريَّة وهو الرسول ﷺ: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، والواسطةِ الكِتابيَّة، وهو القرآن: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

ثالثًا: تقرير العمل الصالح أصْلًا من أصول الإيمان: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

رابعًا: بيان أصناف النّاس في تَأَثُّرِهِمْ بِبَلاغ الرّسولِ ﷺ، وخطابِ الكتاب، وأنَّهم بين مُستجيبٍ ومُعرِض.

خامسًا: تقرير عقيدة البعثِ واليوم الآخِر وما يقترِنُ بها من

مبدأ الثواب والعقاب: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

سادسًا: تقرير عقيدة القضاء والقَدَر وما يتَّصل بها من كتابة الأرزاق والآجال والأحوال والمآلات: ﴿*وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: 6].

سابعًا: الاستدلال على عقيدة البعث الآخر بالقُدرة على الخلْق الأوَّل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود: 7].

ثامنًا: بيان تباين طبائع النّاس واختلاف استعداداتهم تجاه تلك الأصول والعقائد الحقَّة: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود: 7]، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ﴾ [هود: 8]، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود: 9]، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود: 10]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: 11].

تاسعًا: الاستدلالُ على صحَّة القرآنِ ومصدرِه الإلهيِّ بإقرار التَّحدِّي معه ومحاولة الإتيان بمثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: 13].

عاشرًا: عرضُ تفصيلٍ من مشاهد الثواب والعقاب لمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، ومن يريد الآخرةَ ورضوانها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ﴾ [هود: 15 - 16] إلى أن قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٣﴾ [هود: 23].

حادي عشر: تأكيد المقارنة بين أصناف النّاس وتباينهم: ﴿*مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ [هود: 24].

ثاني عشر: ذِكْر الأمثلةِ الحيَّة من سِيَرِ الرُّسُل في إبلاغ العقيدة للناس، وأحوال النّاس معهم، وتباينهم في المآل والجزاءِ، كما تباينوا في التصديق والتكذيب.

ثالث عشر: حشْدُ مشاهدَ من أحوال اليوم الآخر وانتهاء النّاس فيه إلى شقيٍّ وسعيد وثوابِ كُلٍّ وعقابِهم.

رابع عشر: خطابُ الرسولِ ﷺ وأمَّتِه بالاستقامة والانتظام في سلك السُّعداء وعدم الركون إلَى الأشْقِيَاءِ الظالمين، والاستعانة على ذلك بالأعمال الصالحات بأداء الصلوات واكتساب الحسنات.

خامس عشر: تقريرُ سنَّةِ الله الثابتة في اختلاف النّاس في الإيمان والكفر، بما يترتَّبُ عليه استحقاقُهم لتبايُنِ المصير بينهم، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: 118]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: 119].

سادس عشر: ختامُ السّورةِ كان مُلخِّصًا عجيبَ الإشارة إلى كلِّ ما ورد فيها من مقاصد وأصول، فأشار إلى انْقِسام الناس واختلافهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: 118]، وأشار إلى عقيدة القدر: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [هود: 119]، وأشار إلى جميع ما ورد فيها من قصص بما يقرر النبوّات: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]، وأشار إلى الغيبيات وجزاء اليوم الآخر ووعيده: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: 119]، وأشار إلى عقيدة الوحي وصدق الكتاب: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: 120]، وأشار إلى وظيفته في البلاغ بالبشارة والنِّذارة، فقال في البشارة: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: 120]، وفي النِّذارة: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: 121 - 122]، وكما بدأ السّورةَ بإخلاص العبوديَّة له وكونِ رجوعنا إليه، وكونه يعلم ما يسرّون، وما يعلنون، ختمها كذلك بالتكليف بعبوديَّته، لِكونِ مَرجِعِ الأمر كلِّه له ولكونه يعلم أعمالَنا، ولا يَغفُل عنّا: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: 123].

بيان محورها العام والموضوعات التي تأتلف فيهِ وتَلْتَفُّ بِهِ:

المحور العامُّ الَّذي يجمع موضوعات هذه السُّورة هو تناولها أثَرَ الإصلاح المنهجيِّ السَّليم

في نهوض الحضارات أو اضمحلالها، من خلال عَرضِها نَماذِجَ من الأنبياء المصلحين الَّذين كان لهم دورٌ بارزٌ في إصلاح فساد أقوامهم، وقد جاء ذلك صريحًا على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود: 88]، مبيِّنةً وسائلهم في الإصلاح الَّذي انتهجوه، ومجالات الفساد العقديِّ والسياسيِّ والاقتصاديِّ والأخلاقيِّ الَّذي واجهوه، مبرزة آثار هذا الإصلاح مع أقوامهم عند عدم استجابتهم له سواء أكان دنيويًّا أم أخرويًّا، مبيِّنةً في أثناء ذلك كلِّه بعضَ سنن الله الاجتماعيَّةِ وقوانينه الثّابتة في شأن الرَّبط بين الإصلاح والنُّهوض أو الاضمحلال الحضاريِّ.

إنَّ السّورةَ تَطَرَّقَتْ إلَى شعار الإصلاح الَّذي انتهجه الأنبياء المصلحون، القائم على التَّخلية ثمَّ التَّحلية، وهو الاستغفار وطلب التوبة، ثمَّ توحيد الله والاستقامة على شريعته: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: 2 - 3]، وهو الشعار الذي ردّده الأنبياء عليهم السلام في محاوراتهم لأقوامهم على ما بيّنتْه السورة في الآيات: [هود: 25 - 26، 50، 61، 84].

وقد اختُصِرَ هذا الشِّعار بدعوة نبيِّنا محمّد ﷺ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هود: 112]

وقد تنوَّعت وسائل هؤلاء الأنبياء المصلحين في دعوتهم لأقوامهم الَّذينَ تَكْتَنِفُهُمْ أحْوالٌ شَتَّى، لكنَّها اشتركت في الإنذار والتَّبشير والتَّذكير والحوار، فهي سورة الحواراتِ المطوَّلة للأنبياء مع أقوامهم، ولا أدلَّ على ذلك من شهادة قوم نوح لنبيِّهم: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: 32].

وقد بيَّنت السّورةُ الآثار الدُّنيويَّة الإيجابيَّة للاستجابة إلى دعوات الإصلاح على لسان هود عليه السلام الَّذي تسمَّت السّورة باسمه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ [هود: 52].

وبيَّنت الآثار السَّلبيَّة لعدم الاستجابة على لسانه أيضًا: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾ [هود: 57].

وكشفت السّورةُ الكريمة جوانب هذا الاستبدال بالأقْوَام المفسدة الَّذين تناولتهم السّورة قَوْمًا آخَرِينَ، فقوم نوح قد أصابهم الغرق، وقوم هود أتبعوا اللّعنة في هذه الدّنيا، وقوم صالح وقومُ شعيب أخذتهم الصيحة فأُبيدوا عن بكرتهم، وكذا أقوام لوط وملأ فرعون وبقيَّة القرى.

وبيَّنت السّورةُ قواعدَ الإصلاح وسننَهُ الرَّبّانيَّة الَّتي لا تقبل التَّغيير والتَّبديل وَقَدْ ربطت بقوَّة بين هذا الإصلاح وبين الشُّهود أو الاضمحلال الحضاريِّ في أكثر من آية، فقال في السُّنَّة الرَّبّانيَّة الأولى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7]، فسنَّة البلاء هي مناط الأمر وذروة سنامه، وبيَّنت سنن الله في إهلاك الظّالمين، حيث إنَّ لفظة الظُّلم قد وردت في هذه السّورة نحو أربع عشرة مرَّة، فقد قال تعالى عن الأقوام الغابرة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: 101]، وكذا في الآيات [113، 116، 117].

وبيَّنت السّورة حال الفريقَيْن: المصلحين والمفسدين، وعاقبة أمرهم في الآخرة: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: 24]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: 105]، واستكملت السورة بيان أحوال كل فريق.

بيانُ المناسبةِ بين السورة وسابقتها ولاحقتها:

سورةُ (هود) بين سـورةِ (يونُس) وسورة (يوسف) في الـنُّـزول وفي ترتيب المصحف

سورةُ هود مُكمِّلةٌ لسورة يونس، وباسِطةٌ لِما أُجمِلَ فيها، ووجه اتِّصالهما وتناسبِهما: اتحادُ السّورتين في تقرير أصولِ الدّين، والاستدلال عليها، ودفعِ شُبَهِ المُعارضين وتحدّيهم وإقامةِ الحجَّة عليهم، وذكر اليوم الآخر، وتصنيف النّاس بتباين أحوالهم في الدنيا بين مُخالفٍ وطائع، وتباين جزاءاتهم في الآخرة، فاتَّفقتْ مع سورة يونس في الجوانب الآتية:

أولًا: توارد السّورتين على إثباتِ تنزيل القرآن وتحدّي المعارضين به.

ثانيًا: أكْمَلَتْ سورةُ هود جانبَ القصص الذي أوجزَ في سورة يونس.

ثالثًا: توافقهما في المطلع، فمطلعُ سورة يونس يتحدَّث عن الكتابِ الحكيم: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]، والرسول البشير النَّذير: ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: 2]، وكذلك المطلع في سورة هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾.

رابعًا: توافقهما في الخاتمة، فخاتمة يونس في الأمر باتِّباع الوحي والصَّبر حتى يحكم الله بين الرسول والكافرين: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾، وخاتمة سورة هود عن تثبيتِ الوحي لمن اتَّبعه: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾، والأمر بانتظار حكم الله مع الاستقامة على هذا الاتِّباع بعبادته والتَّوكُّل عليه: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾ [هود: 122]، ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: 123].

خامسًا: توافقُ ختام سورة يونس مع مطلع سورة هود، فإنَّ قوله في ختام يونس: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [يونس 109]، هو نظيرُ قوله في مطلع هود: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

سادسًا: نزلت سورة هود بعد سورة يونس، ونزلت سورة يونس بعد الإسراء وقُبَيْل الهجرة، فيكون نزول سورة هود في ذلك التاريخ أيضًا، وهو من تمام المناسبة في ترتيب النزول وترتيب المصحف[1].

وأمّا عن علاقتها بسورة يوسف؛ فلأنّ سورة يوسف متمِّمة لما في سورة هود من قصص الرسل، والاستدلال بذلك على كون القرآن وحيًا من عند الله دالًّا على رسالة محمد ﷺ خاتم النّبيين، والفرق بين القصص في سورة يوسف وفيما قبلها: أنَّ السابق كان قصص الرسل مع أقوامهم في تبليغ الدَّعوة والمحاجَّة فيها وعاقبة من آمن منهم، ومن كذَّبوهم لإنذار مشركي مكَّة ومن تبعهم من العرب[2].

(1) السيوطي، تَناسُق الدّرر في تَناسُب السوَر، ص: 95، ورشيد رضا، تفسير المنار: 3/12، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/148، وجعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية: 4/65.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/112.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»